● المبحث الأول: المآل العقدى للأكثرية

العقيدة هى الأفكار الأساسية التى تمثل مرجعية الإنسان فى كل سلوكه، فى تفكيره، وأسلوب معيشته، وفى حديثه وطريقة تعامله مع الخلق، فأعماله الصالحة، وأقواله الطيبة التى يرفعها الله إلى السماء (والكلم الطيب يرفعه) ناجمة عن الإيمان الحق، وفساده فى الأرض وعمله على نشر السوء من القول منبثق عن كفره وفساد تصوره.

ولما كانت الأكثرية - كما رأينا فى الباب الأول - قد غلب على عقيدتها الفساد، والكفر بنوعيه؛ كفر غيب، وكفر نعمة، وكانت العقيدة تتفاعل مع السلوك تأثرا وتأثيرا فإن هذا الأمر يطرح تساؤلا عن المآل العقدى للأكثرية، هل يمكن أن يتوبوا فتستقيم حال عقائدهم؟ أم سيمكثون ثابتين على ما كانوا عليه من كفر بالغيب أو بالنعمة، أو بهما معا، حتى يأتيهم الموت وهم غافلون؟

النص القرآنى الذى بين أيدينا ليدلنا على هذه الحقيقة هو قول المولى عز وجل: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧]، قال قطب فى معنى الآية: «لقد قضى فى أمرهم، وحق قدر الله على أكثرهم بما علمه من حقيقتهم، وطبيعة مشاعرهم، فهم لا يؤمنون، وهذا هوالمصير الأخير للأكثرين، فإن نفوسهم محجوبة عن الهدى مشدودة عن رؤية دلائله أو استشعاره»(١).

والتعريف فى القول للجنس، يبين أن هذا هو مآل الأكثرية، ثبت عليهم قول الله وسنته فى الأنفس، بأن من دام منهم على علاقته بأسباب الكفر، من مكابرة، وهجران للذّكْر، وعصيان لله ودوام على الفسق، لا يمكن أن يؤمنَ، لابتعاده عن أسباب الإيمان، ومن ثم سيظل على ضلاله إلى أن يموت فيحق عليه العذاب.

والآيات التى تأتى بعد هذه الآية مباشرة فيها تعليل واضح لثبات الأكثرية على الضلال حتى يدركهم الموت، تمامًا كما حدث لأبى جهل الذى يذكر

---

(١) فى ظلال القرآن: ٥/٢٣/٢٩٥٩.

المفسرون أن هذه الآية نزلت فيه[1]، إذ قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ * وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ** ﴾ [يس: ٧ – ١١].

فالآيات كلها بيان وتفسير وتفصيل للمجمل فى الآية الأولى، قال الزمخشرى: «مثل تصميمهم على الكفر وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين فى أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأطئون رؤوسهم له وكالجاهلين بين سدين لا يبصرون قدامهم وما خلفهم فى أن لا تأمل لهم ولا تبصر، وأنهم متعامون عن النظر فى آيات الله»[2].

إن التشبيهين المواليين للآية الأولى يكشفان حقا عن معنى: ﴿ **لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾، وذلك لأن التشبيه الأول يصورهم فى حالة المقمحين وهم الذين يرفعون رؤوسهم فلا يرون ما أمامهم، وفى ذلك دلالة على التكبر على أسباب الهدى، وهى الذكر والقرآن كما بينت الآية بعد ذلك ﴿ **إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ** ﴾، أى أن الإيمان يطرق قلب من اتبع القرآن واستمع إلى الدعاة ليحصل له تغير فى التصور، ووعى فى العقل وإيمان فى القلب، وأنى يحصل ذلك لمن يتكبر عن الإنذار والتبشير؟ فهذا لا يحصل له الخير أبدا ﴿ **وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ فالإنذار لا ينفع فيهم، لأنهم ليسوا مستعدين لسماعه، أو الاستجابة لنداء أهله، وقد تكرر هذا المعنى فى سورة البقرة إذ قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [البقرة: ٦ –٧].

---

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن ١٥/٧، الزمخشرى: الكشاف: ٣/٣١٦.
(٢) الكشاف: ٣/٣١٥.

فهذه الآية تأكيد للمعنى السابق وبيان لكون المآل الذى يؤول إليه الكفار من جهة العقيدة والتصور - إذا لم يتوبوا - إنما هو الثبات على الكفر، لأن قلوبهم وعقولهم صارت كالمختوم عليه بإحكام بحيث لا يتسرب إليها ما يغير حالها نحو الوعى الصحيح والفهم الراجح لأمور العقيدة وما ينبثق عنها من سلوك.

أما من عطل وسائل الإدراك كلها من عقل وسمع وبصر، فإن إبقاءه على ما كان من ضلال هو الحال الطبيعية للذات البشرية، إذ كيف يتغير وعيه وهو فاقد للسمع والبصر والعقل، لأن إرادته تمنعه من استخدامها أصلا، قال الزمخشرى: «إن الحق لا ينفذ فى قلوبهم ولا يخلص إلى ضمائرها من قبل إعراضهم عنه واستكبارهم عن قبوله واعتقاده، أو أسماعهم لأنها تمجه وتنبو عن الإصغاء إليه وتعاف استماعه كأنها مستوثق منها بالختم، أو أبصارهم لأنها لا تجتلى آيات الله المعروضة ودلائله المنصوبة كما تجتليها أعين المعتبرين المستبصرين كأنما غطى عليها وحجبت وحيل بينها وبين الإدراك»[1]، ثم قال: «وأما إسناد الختم إلى الله عز وجل ﴿ **خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ..** ﴾ فلينبه على أن هذه الصفة فى فرط تمكنها وثبات قدمها كالشىء الخلقى غير العارض، ألا ترى إلى قولهم فلان مجبول على كذا ومفطور عليه، ويريدون أنه بليغ فى الثبات عليه"[2].

وعلى الجملة فإن مآل الأكثرية من جهة العقيدة هو الثبات على الكفر والضلال، والسبب فى ذلك مكتسب من الأجواء النفسية والخلقية التى جعل الإنسان نفسه فيها، فكبلته العادات والتقاليد لتُشكل فى النفس سنة الجمود، إذ جعلت إرادته مفقودة فظل عبداً لأهوائه لا يلتفت إلى الحق وأسبابه الأساسية من قراءة كتاب الله وخطابه إلى خلقه، ومن وعظ المرشدين، وتدبر أحوال الناس من حوله فصار كالفاقد لآلات السمع والبصر والعقل، ﴿ **لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا**

---

(١) الكشاف ١/١٥٦.

(٢) الكشاف: ١/١٥٨ - ١٥٩.

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فالأكثرية لا ينفع معها شيء إما لجمودها، وإما لتكبرها عن كل أسباب الهداية التي من شأنها أن تصلح العقائد والتصورات، ومن ثم ستبقى أضل من الحيوانات حتى تبلغ مآلها من جهة العذاب كما سيتضح من نص آخر في مباحث أخرى، وهذا الجمود على الباطل يشمل الأفراد كما يشمل الجماعات كما تدل عليه الآية: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١]

* * *